

التداولية والمقاربة البلاغية
في نونية ابن زيدون-دراسة
بلاغية نقدية-

Pragmatics and the rhetorical
approach in Nunyah Ibn Zaydun
- a critical rhetorical study -

إعداد

م.د. صفاء جاسم عبد الصاحب خلف

كلية القانون-جامعة سومر

Safaajasim428@gmail.com

رقم الهاتف/07827043495



الملخص:

إن تمازج البلاغة والتداولية وجعلهما رافدًا واحدًا قد اتخذ من اللغة أداة لممارسة الفعل على المتلقي، وإن العبارة البلاغية المعروفة: "لكلِّ مقام مقال" أكدت أن أهم وظائف التداولية هي مراعاة سياق المقام أو الموقف الخطابي، ولهذا نجد في نونية ابن زيدون أنها محملة بتلك الترصيعات؛ ومن بينها الأفعال الكلامية التي استعملها الشاعر؛ ليدل بها على معنى ظاهره اللغوي الشكوى من النأي، واجترار الاشواق وباطنه موجات من الحزن؛ وهذه التداعيات التي اشحذت قريحته؛ ليأتي بكلِّ تلك الصور البلاغية الرائعة.

ولهذا جاءت دراستنا لنونية الشاعر الاندلسي ابن زيدون في ضوء هذا المنهج (البلاغي النقدي)، والامتزاج البلاغي عبر تطبيق المحاور التداولية وهي: الاشاريات وتناولت فيها الاشاريات الشخصية، والزمانية والمكانية، وافعال الكلام المباشر وغير المباشر، والاستلزام الحوارية بالتضمينات الخطابية والوضعية، لدراسة المعنى الذي قصد المتكلم افهامه المخاطب، وفق عالم مناجاتي أذاب فيه الأسى والآلم على فراق ولادة بنت المستكفي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، التداولية، المقاربة، ابن زيدون، الاشاريات



Abstract:

The intermingling of rhetoric and pragmatics, making them a single tributary that uses language as a tool for exercising action on the recipient, and the well-known rhetorical phrase "There is a time and place for every speech" confirms that the most important function of pragmatics is to consider the context of the situation or rhetorical situation. We find in Ibn Zaydoun's Nuniyyah that it is laden with these inlays, including the verbal acts that the poet used to indicate a meaning whose apparent linguistic meaning is a complaint about distance and the regurgitation of longings, and whose inner meaning is waves of sadness; and whose inner meaning is these associations that sharpened his genius to come up with all those wonderful rhetorical images. Therefore, our study of the Nuniya of the Andalusian poet Ibn Zaydoun came in the light of this method (Rhetorical and critical), and the rhetorical blending through the application of the pragmatic axes, which are: the indicatives, in which I dealt with personal, temporal and spatial indicatives, direct and indirect speech acts, and the dialogical implication with rhetorical and situational implications, to study the meaning that the speaker intended to make the addressee understand according to a world of supplication in which he melted the sorrow and pain of separation from Wallada bint al-Mustakfi.

Keywords: rhetoric, pragmatics, approach, Ibn Zaydoun, indicative.

المقدمة

إنَّ التداولية لغة مأخوذة : "من التداول وهو تبادل الأدوار بين المتكلم والمخاطب و((دال)) الدهر -دولة انتقل من حال إلى حال ، و(الأيام) دارت... (تداولت) الأيدي الشيء: أخذته مرة وهذه مرة. ويقال: تداول القوم الأمر". (فارس، ١٩٧٩، صفحة ٣١٤)، وقد أفاد المعنى الاصطلاحي من المعنى اللغوي، إذ دلت التداولية على كيفية استعمال اللغة في السياق، ودراسة المعنى الذي يقصده المتكلم . (ينظر. الباز، ٢٠١٥، صفحة ٥٩)، وهو المعنى الذي تذهب إليه البلاغة العربية.

ونشأ مفهوم التداولية عبر خطين متعاقبين هما السيميائيات والفلسفة البراجماتية التي اعتنت بدراسة المعنى ، كما اتجهت الى عنايتها بكيفية التواصل مع المتخاطبين ويعود ذلك إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في أمريكا الشمالية على يد بيرس وذلك بين عام ١٨٦٥ و ١٨٧٢ عندما عرض فكرته على أصدقائه ومن بينهم ويليام جيمس، فانطلقت ابحاثه التي نهض بها عن علاقة اللغة بالمجتمع ، وعلاقة المجتمع باللغة ومدى تأثير أحدهما في الآخر .

فأصبحت تُعنى بما عجزت اللسانيات عن تأويله، لذا اتجهت صوبها الأبحاث اللسانية بالتقائها بدراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، فضلاً عن الأبحاث التي اجريت عن بيئة الكلمة ووظيفتها . أما آليات المنهج التداولي، فقد ذكر التداوليون أن أهم المعايير أو الآليات التي تبنى عليها التداولية هي : الإشارات، والأفعال الكلامية. والافتراض المسبق، والاسـتـلزام الحواري، ومما لاشك فيه أن دراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال تركز على الكشف عن القوة الانجازية التي يمكن أن تحققها تلك العبارة اللغوية، وتضطلع بإبراز الدلالات التي تستفيدها اللغة ضمن استعمالها.

المطلب الأول: الاشارات

الإشارة من التلويح أو الايماء بشيء يفهم منه المراد إذ "تعد العلامة إشارة، إذ كانت كل واحدة من مقابلاتها مرتبطة وجوديا بما هو مقياس. فالعلامة وما تحيل عليه يكونان طرفا في وضعية وجودية واحدة، كما هو شأن الدخان بالنسبة للنار، والعرض للمرض، والاثـر في الممر ". (ارمينكو، د.ت، صفحة ١٩)، والاشارة في اللغة من "اشار اليه وشوّر: أوماً، يكون ذلك بالكف، والعين والحاجب ". (منظور، لسان العرب، د.ت، صفحة ٤١٦)، ليفهمه المخاطب عبر السياق التخاطبي. ولعلّ مصطلح الاشارة يدل على فعل يستعمله المتكلم أو الكاتب بصيغ لغوية تمكن السامع أو القارئ من تحديد معنى معين، ولهذا تضمنت اسماء الاشارة والضائـر، والاسماء الموصولة، والظروف الزمانية، والمكانية. بحسب ظروف استعمالها وفقا لمفوضها في السياق، ولا يمكن أن يستعمل المخاطبون اللغة في تواصلهم أو التعبير عن ارادتهم إلا بوجود الإشارات، حيث يمكن أن تقوم الاشارات بدلالة كاملة على قصد المتكلم أو كما أراد. (ينظر.السلام، ٢٠١٥، صفحة ١٢٨).

والإشارات توجد في اللغات كلها بكلمات وتغيرات تعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذي تستعمل فيه ولا يستطيع انتاجها أو تغييرها بمعزل عنه وهي على انواع:

أولاً: الإشارات الشخصية

ويُقصد بها الضائـر الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب وهذه الاشارات تتنوع معانيها ودلالاتها بتنوع المقام فقد يستعمل المتكلم مرجعًا شخصيًا بصيغة النكرة، أو المعرفة كأسماء الإشارة، أو الموصول أو المضاف والمعرف ب(ال). وفي استعمال المتكلم نجد أن لكلٍ منها ما يلائم وسيق تخاطبه؛ ليتجلى المقصود بها، حيث يضيف استعمالها على المعنى بأكثر المدارك التي يمكن أن تحملها دلالتها الحرفية ، ويدرك ذلك في

السياق التخاطبي، حيث يتسنى للمتلقى معرفة ما يقصده المتكلم من استعماله لتلك الاشارة. (ينظر.الباز، ٢٠١٥، صفحة ١٤٩).

وتعد نونية ابن زيدون من النماذج الشعرية التي تكللت بالاشاريات الخطابية منذ أولى كلماتها الافتتاحية وما احوالت عليه حروف رويها، بأوليات أبياتها وحتى ختامها، في تلك الخطابية التي رسمها لبيت شكواه وتغزله بولادة بنت المستكفي بعد ان هجرته عندما يقول :

"أَضَى التَّائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيَا
لَا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ، صَبَّحْنَا حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِيَا
مَنْ مَبْلَغُ الْمَلْبَسِينَا بَانْتِزَاجِهِمْ جُزْنَا، مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُئَلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَاءَ بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فِدَعُوا بِأَنْ نَغْصَّ، فَقَالَ الدَّهْرَ آمِينَا."

(زيدون، ١٤٢٩-٢٠٠٨م، صفحة ٢٩١).

على الرغم من أن المرسل الحقيقي لهذا الخطاب هو ابن زيدون، إلا أننا نجد توظيف صيغة المثنى باستعمال الضمير (نا)، وهذه هنا هي احدى الاشاريات الاحالية العاكسة بوساطة الضمير (نا)، المحيل على ابن زيدون وولادة من ذلك (تدانيا)، (وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيَا)، (صبحنا)، (فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِيَا)، (يبلى)، (يضحكنا)، (قد عاد يبكيها)، وتعدُّ هذه من الوسائل البلاغية في إيصال المعنى وتوجيه الخطاب إلى ذهن المتلقي.

والاحالة العكسية: تعني العملية المباشرة التي يشير اليها المتحاورون عبر الاحالة على أنفسهم بوساطة ضمائر تعود عليهم (أنا، أنت، هو...) وعلى اساس ذلك تعدُّ هذه الإحالة الأكثر درجة في الشمولية من التسمية أو الوصف. (ينظر. علوي، ٢٠١١، صفحة ٤٨٦).

وهناك من الاحالات العكسية على الغائب. سواء كان عاقلاً مثل الإنسان بكلا جنسيه أو جمادًا، كما في قوله:

"غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فِدَعُوا بِأَنْ نَغْصَّ، فَقَالَ الدَّهْرَ آمِينَا."

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ١٤٢٩-٢٠٠٨م، صفحة ٣٠٠).

فالضمير في (دعوا) واو الجماعة ما يوحى بالإحالة على الجمع الغائب،

والذي يعود على الأعداء والمبغضين والساعين لتفكيك الخُبّ الذي كان بين ابن زيدون وولادة. والمكانة التي كان يستمتع بها الشاعر عندما كان إلى جانب حبيبته، والسياق هنا مصطبغ بصبغة اجتماعية نابغة من محاولات المجتمع الذي اراد التفريق بين المتحابين، واعانهم على ذلك الدهر وأمن على دعائهم، ليدل على انه ليس المجتمع فقط من كان يضمهما الحسد، كذلك الزمن كان عاملاً آخر وعدواً ثانياً لهما، فاشتركا بالعداوة وتظاهرا عليهما، واكد ذلك بحرف التوكيد (أن) ليدل على تأكيد المعنى المقصود مما يثري المعنى البلاغي.

ثانياً: الاشارات المكانية

يحظى مكان التخاطب في الدراسة التداولية باهتمام واسع إذ " يؤثر على المتخاطبين في انتقائهم الألفاظ المناسبة لتخاطبهم، حيث يكون المتكلم مركزاً لتقسيم الاشارات المكانية في قربها منه او بعدها عنه؛ ويضفي ذلك معاني جديدة لا يحملها اللفظ، يستدل بها المتلقي على قصد المتكلم وهو المعنى التداولي". (الباز د، آفاق التداولية في النصوص النثرية، ٢٠١٥، صفحة ١٧٣).

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ به مَن كانَ صِرْفَ الهَوَى، وَالوُدَّ يَسْقِينَا
وَاسألْ هُنالِكَ: هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا إلفاً، تَذَكُّرُهُ أَمسى يَعْنِينَا؟

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، صفحة ٣٠٠).

حيث قصد المتكلم أن تحمل الاشارات المكانية اكثر من دلالتها اللفظية فكلمة (ساري البرق) التي تدل على المطر والغيمة التي تحملها، وهذه الإشارة كانت في الشعر الجاهلي قرينه له بالدعاء لديار الحبيبة عندما تبعد عليهم، وما أكد الإشارة المكانية لفظتي (القصر، هنالك) والإشارة هنا أراد بها الشاعر أن يدل على مكان ومركز ذلك الشخص، فكلمة (القصر) مكان معلوم محدد اعتمد في تفسير مرجع (ولادة) في الواقع وهي ما تضي عليها خاصية الترف والرفاهية وانها سيدة في ذلك المكان، و(هنالك) اشارة إلى أشياء ابتعدت لتصبح خارج مجال الاجتماع مرة اخرى، وهو الانقطاع

بالبعد والموت .

لهذا "لجأ بطلب الدعاء بالسقيا لمن سكن ذلك القصر, وأنَّ (ساري) فعل يدل على الحركة المستمرة والفعل الدائم؛ إذ جاء الشاعر بهذه اللازمة ليوفق بين متضادين الشخص المتجهم والمتوقف العاطفة البارد , وذلك الغيم المتحرك لِيُنشئ تفاعلاً بينهما فعل الغيم (المطر), وقلب المحبوب (الواجم) فبفعل الحياة التي يبعثها المطر بعد نزوله على الأرض الجرداء و(مشاعر ولادة) , التي بردت وما يتركه هذا الفعل من إعادة النماء والزهر من جديد عليها ترق له وتعود أيامه السالفة عندما يحيي ذكرياتها ذلك السقي والود الذي كان بينهما , فالبعد بينهما كان بعيدا بين الثرى وموضع ذلك القصر والثريا التي تحمل البرق وهي نوازع الشاعر الشعورية وقد اعتمد تفسير تلك التعابير التأشيرية عبر السياق الخطابي .

وما يدل على ذلك المنزل قوله:

رَبِيبٌ مُلْكٍ، كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ مِسْكَاً، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا.

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، صفحة ٣٠٠).

فالتأثير المكاني "يدل دلالة ضمنية على المنزلة التي هي فيها (ربيب ملك) ، يشير الى المكان الذي تربت فيه, ولا يوجد الملوك الا في القصور، وهذا المحيط الذي يرى فيه غير الدعة والرغد، وكأنما جعل التميز لهم ليس بالمنزلة الاجتماعية فقط، إنما المنزلة الخلقية المفارقة عن بقية الخلق فقد خلقوا من المسك المغاير لصفات الطين. والأول أسمى لديه فالعلامة الاشارية هنا تدل على المكان الذي كانت تشغله تلك الربيبة بصفتها ملكة في ذلك القصر . وهو ما جعله يميز نفسه عن سائر العاشقين بخروجه عن قاعدتهم بالتغيير بسبب البعد.

ثالثاً: الاشارات الزمانية

وهي "ألفاظ تمثلها ظروف الزمان وفقاً لزمان التلفظ الذي يُعدُّ المرجعية في فهم الخطاب، وإلا التبس الأمر على المتلقي، وقد تأتي خطابات المتكلم مركزة على الاشارة المكانية للولوج في اسباب الاطار

الزمانى الذى يطلع فيه السامع أو القارئ على النص". (ويول، ١٩٩٧، صفحة ٦٤).

ومثل هذا نجد فى نونيه ابن زيدون بقوله:

"إِن كَانَ قَد عَزَّ فِي الدُّنْيَا اللِّقَاءُ بِكُمْ فِي مَوْقِفِ الحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَتَلْقَوْنَا
كَأَنَّنا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثًا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِلسَّانِ الصُّبْحِ يُفْشِينُ"

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، الصفحات ٣٠١-٣٠٢).

إنَّ اليأس من اللقاء فى الدنيا قاد الشاعر تصنع الأمل، فعبر عن هذا اليأس لمخاطبتها بضمير المخاطب للجماعة، إذ أشار زمانياً إلى الماضى الذى عز فيه اللقاء واستعان بلحظات المستقبل البعيد (مواقف الحشر) فى يوم الحساب، وبما أنه غير محدد فقد اتسم بالبعد، فالظاهر أن الأشياء البعيدة عن ادراك الإنسان تترك أثراً نفسياً متأزماً بينما يكون التأثير الزمانى هنا قد أحيل إلى غير ذلك، ففي ذلك الاطار الزمانى المتمثل بساحة الحشر تتحضر لحظات اللقاء، ومن أجل تحديد مرجع الاشارة الزمانية وتأويل الخطاب بصورة سليمة يستلزم أن يتخذ الفاظاً تتناسب وهذا المقام وذلك فى (نبت) من المبيت ويكون وقت الليل و (الظلماء) أحد لوازم الليل و (الصبح) الظرف الزمانى، وقيمة هذا الخطاب هو استدعائه لصور الماضى الجميل وتصوير تلك اللحظات الماضوية (نبت والوصل ثالثاً)، (والسعد قد غض ...)، (حتى يكاد لسان الصبح يغشينا) ولاستحالة عودة تلك اللحظات المرتبطة بالماضى . والعلامة النصية الدالة على تلك الاستحالة او عن وقوع الحدث مرة اخرى هو (كأننا)، فالضمير (نا) إشارة عائديه تحيل على (ابن زيدون وولادة) بدلالة الفعل الناقص والناسخ لتلك الأيام المشرقة، وقد أثر البعد النفسى فى استعمال هذه الإشارات الزمانية.

المطلب الثاني: الأفعال الكلامية

تعدُّ الأفعال الكلامية الأساس في الدراسات التداولية اللغوية , ولعلَّ هذه الظاهرة ليست جديدة أو أنها نشأت في أحضان الفلسفة اللغوية على يد أوستن وبعده ميرل أو بيرس , بل إن جذور هذه النظرية قد انحدرت من التراث العربي والبلاغي ضمن نظرية الخبر والأنشاء وقد درسها عددًا من العلماء وإن لم يكن مقصودًا لذاته , واتخذت هذه الظاهرة وسيلة لا غاية, فمن النحاة والبلاغيين الذين تعرضوا لها عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ), وأبو يعقوب السكاكي (ت: ٦٢٦ هـ) وجلال الدين القزويني (ت: ٧٣٩ هـ) والشريف علي بن محمد الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) وغيرهم , كما تدارسها نفر من الفقهاء والاصوليين لما أسموه ب (الفاظ العقود) وهي الألفاظ التي تتعهد بتبني المعاملات والمعاهدات والعقود, وما تقضيه من شروط وأحكام في تشريعاتها السياسية والاجتماعية المختلفة. (ينظر. صحراوي, ٢٠٠٥, صفحة ٧٠٦).

ثم تمحورت هذه النظرية على يد جمع من الفلاسفة امثال أوستن وميرل وجرايس بعد ان كانت متأصلة في الفلسفة البراجماتية لبيرس, واللغوية لفنجنشتاين, حيث ترى هذه النظرية أن للكلام قوة فاعلة ذات تأثير في الواقع, فهي لا تصف بملفوظاتها صورة الواقع كما هو ولا يمكن وصفها بالصدق او الكذب, فكانت ردة فعل على من قصروا مهمة اللغة في كونها تصف الواقع بعينه او تثبته كما هو. (ينظر. أوستن, ١٩٩٢, صفحة ١٣).

إذ يؤسس الفكرة بوجود عدد من الملفوظات تسمى إنجازية أو أفعال ادائية, وهذه الاخيرة لا يمكن أن تتحقق إلا بشروط أطلق عليها اوستن شروط الملاءمة, بسؤاله: كيف ننجز فعلاً حين ننطق قولاً؟ فتوصل إلى أن الفعل الكلامي المنطوق ينتج ثلاثة أفعال في الوقت ذاته .

أولاً: الفعل الانجازي

وهو ما يقتضي من المتكلم "التلفظ بأصوات مقروعة، محمولة في الهواء، ثم أن النطق بكلمات مؤلفة بتركيب مخصوص والتكلم إنما ذلك كله، هو الدلالة بالمعنى المفصل لدى الفلاسفة؛ إذ إن هذا المصطلح الأخير هو الدلالة التي تجمع المعنى والمرجع معا. وإن فعل التكلم بشيء ما بالمعنى الواسع لهذا المركب إنما اسمية، بل امنحه هذا اللقب وهو إنجاز فعل الكلام". (اوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، ١٩٩٢، الصفحات ١٢٣-١٢٤).

ثانياً: الفعل اللفظي

وهو عند احتوائه فعلاً صوتياً بمجرد التلفظ بالعبارة، وفعلاً تركيبياً، ودلالياً يمثل المعنى الحرفي للتركيب والمرجع له، وكل ذلك ينجزه في آن واحد. (ينظر. اوستن، ١٩٩٢، صفحة ١١٥).

ثالثاً: الفعل التأثري

ويعرف بأنه "ما يمكن مستعملي اللغة الطبيعية من التواصل فيما بينهم (بواسطة)، العبارات اللغوية، أي يمكنهم من التفاهم والتأثير في مذكرهم المعلوماتي، بما في ذلك من معارف وعقائد وافكار مسبقة وإحساسات؛ والتأثير حتى في سلوكهم العقلي عن طريق اللغة". (المتوكل، ٢٠١٣، صفحة ٢٤).

ومع ما بذله أوستن في صياغة أفعال الكلام فقد تعرض للنقد، بتصنيفاته الأفعال الكلامية إلى: أفعال التعهد، وأفعال السلوك، وأفعال القرارات، وأفعال الاحكام، وأفعال الإيضاح. إلا أن تلميذه (ميرل) دعا إلى تطوير تلك الأفعال وإعادة تصنيفها إلى الأفعال الانجازية المباشرة والأفعال الانجازية غير المباشرة. (ينظر. موشلار، ٢٠٠٣، صفحة ٣٣).

أ- الأفعال الانجازية المباشرة :

وهي الافعال التي " تطابق قوتها الانجازية مقصد المتكلم ؛ وهو أن ما نقوله ينطبق تمامًا مع ما نقصده، حيث إن هذه المرحلة تمثل تعديلاً للأفعال الكلامية التي وصفها أوستن، فاصبحت أربعة أفعال هي :

فعل القول : ويتمثل في نطق الكلمات والأصوات، ضمن القواعد الصوتية والتركيبية للغة، والفعل القضوي ، ويتمثل في الإحالة (المرجع) والإسناد اللذين يشكلان معاً قضية. وهو يمثل الفعل الدلالي من الفعل القولي عند أوستن ". (الحسن، ٢٠١١، صفحة ٨). أي هو كل ما ممكن أن يحقق إنجازاً فعلياً لدى المتكلم . ونجد ذلك في قول ابن زيدون :

"لَيْسَقَ عَهْدَكُمُ عَهْدُ السَّرُورِ، فَمَا كُنْتُمْ لَارِوَاحِنَا، إِلَّا رِياحِينَا
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَا يُغَيِّرُنَا إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
وَاللَّهِ مَا ظَلَبْتُ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ، وَلَا انصرفت عنكم أمانينا"

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ٥١٤٢٩-٢٠٠٨م، الصفحات ٢٩٩-٣٠٠).
تحدد العناصر المكونة "للخطاب الشعري عند أقطاب عديدة، وقد تشكلت معاني دلت على فعل انجازي، عبر فعل الدعاء (ليسق) ، وفعل الامر (تحسبوا) ، والقسم (لله ما طلبت) ، إنما تكشف عن مدى قدرة الشاعر في فهم تداولية النص باستعماله لتلك الصيغ وهي افعال انجازية مباشرة اخذت طريق وقضاء حوارها في النص بين المتكلم والمتلقي مستعينا بضمير الغائب الذي يمثله للمتلقي (كنتم ، عهدكم ، نأيكم ، منكم ، عنكم) فيما نسب الشاعر لنفسه ضمير (الانا)، (أرواحنا ، عنا ، بغيرنا ، أهواؤنا ، أمانينا) وتبدو هذه المحاورة على درجة من التشظي النفسي بنسق متتابع ، فأبتدأ بطلب السقيا والدعاء لذلك العهد الذي مضى ، ثم النهي عن الاعتقاد بأن البعد قد يغير من تلك المشاعر شيئاً واتمامها بالقسم عن تبدل الاهواء لغير المحبين ، وذلك انما ادركه الشاعر بانتقاله من حصول الفعل الى التعبير باللفظ عبر اساليب الطلب والفعل الكلامي.

والملاحظ ان الشاعر قد تعمد استعمال الأساليب المباشرة، إذ إنَّها لا تترك المرسل اليه مجالاً للتأويل ، ولا توقعه في متهات، وإنما يتولد من الفعل التأثيري وهو (النأي) والبعد الذي ادى بكل هذه الاحوال المتمزقة ، اذ لجأ فيها المتكلم الى صياغة اساليب متعددة لبرهنة متعلق واحد، وهو رسم حالته عند الفراق بمزجه بين الأفعال الانشائية الطلبية التي تستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل (ليسق)، والنهي (لا تحسبوا) والصيغة الانشائية غير الطلبية (والله ما ..)، فهنا ليس له نسبة مطابقة في الخارج، إنما اوجده فعل التلطف في الكلام .

ب-الأفعال الانجازية غير المباشرة

وتعدُّ من أهم قضايا الدراسات التداولية، وقد طوّرها غرايس بعد أن ظهرت على يد سيرل، وعندها حاول غرايس بعد ذلك التفريق بين ما يُقال وما يقصده المتكلم، فالذي يقال هو ما تعنيه العبارات والكلمات بقيمها اللفظية، وإنَّ ما يقصده المتكلم هو ما يريد إبلاغه بطريقة غير مباشرة، بما يستدل عليه المتلقي بقدرته بفهم القصد عبر الوسائل الاستدلالية التي تتجه لتفسيرها بغية الوصول إلى مقصد المتكلم. (ينظر. موشلار، ٢٠٠٣، صفحة ٥٦).

ومن التطبيقات على ذلك قوله:

"ياليت شعري - ولم نُعتب أعاديكم- هل نال حظاً من العُتبي أعادينا
لم نعتقد بَعْدَكُمْ إلا الوفاء لكم رأياً، ولم نتقلد غيره دينا"

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ٥١٤٢٩-٢٠٠٨م، الصفحات ٢٩٨-٢٩٩).

إنَّ استعمال الشاعر أسلوب النداء المقرون بالتمني للدلالة على مدى حبه وإخلاصه كما وظفَّ لغته توظيفاً مجازياً للتعبير عما يختلج في مشاعره حينما استعمل أسلوب الاستفهام (هل نال..)، لإفادة النفي، وفي البيت الثاني نفي الاعتقاد والتقلد وفاءً للمخاطب ، يتضمنها لقوتين انجازيتين لأفعال غير مباشرة، لأنَّ قوتها الانجازية لا تطابق مراد المتكلم ، فأراد الشاعر أن يترك تأثيراً ، والزام نفسه الوفاء

حدث جملة (لم نعتقد...) هذه الجملة انجزت فعل (يتعهد بالوفاء)
فهياً فعلاً انجازياً وهو الوعد بالوفاء .

ونجد ذلك أيضاً في قوله:

"بنتم وبنّا، فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت ماقينا".
(زيدون، ديوان ابن زيدون، ٥١٤٢٩-٢٠٠٨م، صفحة ٢٩٩).

هنا فصل الشاعر في استعمال الضمير بين المتكلم والمخاطب (بنتم
بنّا) واسند الفعل الى كل ضمير على حده , بين اثر هذا الاستعمال
في وصف اوضاع التخاطب وفي بناء المعنى الشعري , والفعل
الكلامي التقريري يحمل قوة انجازية اخبارية مع (فما ابتلت جوانحنا
ولا جفت ماقينا) غير مباشرة مفادها الحزن الدائم والالم بعد البعد
, ونتيجة لذلك قد جفت ضلوعنا وضلت عيوننا مبتلة بالدمع , وهذا إنما
يولد لدى المتلقي قناعة بعدم اقتناع العقل بهذا الاخبار , فلا يمكن أن
تجف الضلوع , أو يتواصل ذرف الدموع بشكل مستمر , إنما عبر بذلك
الشاعر بأفعال غير مباشرة, ليعطي صورة ذلك الحزن الذي تولاه أثر
البعد والفرق يتذكره للأيام الماضية ومقارنتها بأيامه الحاضرة.

المطلب الثالث : الاستلزام الحواري

يمثل الاستلزام الحواري: " آلية من آليات إنتاج الخطاب ، إنه يقدم تفسيراً صريحاً لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل؛ أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة ". (ادراوي، ٢٠١١، صفحة ١٩). ولعلّ من أوائل من استعمل مصطلح الاستلزام الحواري هو جرايس إذ اقترح أن توصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي تبعاً لمبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه؛ لأنّ مصدر الاستلزام هو الخرق المقصود، لإحدى القواعد الأربع مع التوافق والتلاؤم في المبدأ العام، الذي هو مبدأ التعاون. (ينظر.السلام، ٢٠١٥، صفحة ٣٣٣). وتقسم الاستلزمات إلى قسمين :

أ- الاستلزمات (التضمينات) الخطابية المحادثية

إذ يعتمد فيها المتكلم على إيصال أكثر من المعنى الدلالي للألفاظ التي يأتي بها في خطابه ، وذلك عبر التضمينات التخاطبية . (ينظر.الباز، ٢٠١٥، صفحة ٣٣٤)، وهذه بدورها تنشظى إلى :

١- الاستلزمات التخاطبية المعممة

التي يمكن للمخاطب أن يستنتجها دون الحاجة الى معرفة دقيقة بالسياق. (ينظر.الباز، ٢٠١٥، صفحة ٣٣٤). ومن ذلك قول ابن زيدون في نونيته :

"يا لَيْتَ شِعْرِي - ولم نُعْتَبِ أعاديكُم - هل نالَ حُظاً من العُتْبَى أعادينا"

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، صفحة ٢٩٨).

نجد أنّ المخاطب لم يذكر إجابة للسؤال الذي ألقاه عليه المتكلم (هل نال حظاً...)، إلا أنّ المتكلم عبر السياق التخاطبي المشترك بينهما يصل إلى الإجابة المقصودة، وهو ما لم يكن في حاجة إلى معرفة أكثر بالسياق، فالشاعر هنا لم يكن يقصد الاستفهام بمعناه الحقيقي، إنّما قصد به الإخبار عن التقرير أي (قد نال أعادينا ما ابتغوا)، فخرج الاستفهام عن معناه الظاهري إلى فعل تقرير منجز فعلياً .

٢-الاستلزمات التحادثية المخصصة

وتعدُّ الأكثر " استعمالاً بين أنواع الاستلزمات (التضمينات)، إذ تكمن في خوض المحادثات في سياقات محددة، تفترض فيها استدلالات معروفة كلياً، وتأتي المعاني الموصلة المتانية من التحادث". (الباز د، آفاق التداولية في النصوص النثرية، ٢٠١٥، صفحة ٣٣٦).
ومن ذلك قوله:

"غَيْظُ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى، فَدَعَا بِأَنْ نَغْصَّ، فَقَالَ الدَّهْرُ: آمِينَا"
(زيدون، ديوان ابن زيدون، ٥١٤٢٩-٢٠٠٨م، صفحة ٢٩٨).

إن الشاعر "قد عقد نصه في هذه المحادثة بين الاعداء والدهر، حتى يعبر عن فكرته، فجاء جزاء الدعوة (بأن نغص) واكدها ب(أن) المصدرية بالفعل (قال)، فجعل الدهر يتكلم، وهو استلزام حوارى، ضمنه المتكلم عبر تراسل الحواس إن اشرك الطبيعة مع اعداءه مجازياً، فألبس الساكن رداء المتحرك، والقى عليه صفات الإنسان الذي يؤمن على الدعاء فهو استلزام تخاطبي خرج من معناه الطبيعي الى المعنى التداولي عبر استنطاق الجماد، أراد المتكلم ايصالها فكرة (اتفاق الاعداء مع الزمن)، على المحبين لتفريقهم، فعبر فيه المتكلم عن مقصده بنحو يتجاوز فيه وضعية اللغة.

ب-الاستلزام الخطابي الوضعي

ويُعنى: بما تحمله المظاهر غير الصدقية للأقوال؛ فيُحدد حينئذ بدلالاتها. إذ أنَّ المظاهر الصدقية تحمل توافقاً لا يمكن أن تجد مخرجاً مع دلالة الالفاظ. (ينظر. السلام، ٢٠١٥، صفحة ٣٤٣).
ومن التطبيقات على ذلك:

"إنا قرأنا الأسى يوم النوى سُوراً مكتوبةً، وأخذنا الصُّبرَ تَلْقِينَا"

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ٥١٤٢٩-٢٠٠٨م، صفحة ٣٠٢).
جعل الشاعر هنا الحزن الذي ألم به قرأناً فيه من سور البعد ما كانت تسليه بعد الفراق، وترجم ذلك الأسى إلى حروف مكتوبة اختطت

برسمها ملجأً له من لوعة الاشتياق، بمقابل ذلك جعل الصبر علماً شفاهياً يتلقاه بالاستماع، وهذا من المظاهر غير الصدقية للقول، فلا يمكن أن يكون البعد مجسداً للمتكلم بهيأة كتاب مقروء، ولا الصبر بالعلم الشفاهي الذي يتلقفه، والشاعر إنما أراد ترسيخ ذلك القول بالحرف المصدري (إننا) للتأكيد على صدق اقواله، فتوصل المخاطب على الاستلزام الخطابي الوضعي بالتأكيد، والإسناد الفعلي في الأفعال (قرأنا) و (أخذنا)؛ مما زاد في تأكيد دلالة الجملة الخطابية، وجعل من التلميح غاية للابتعاد عن التصريح المباشر، وهذا الكم الهائل من المشاعر المترakمة تُعدُّ مظهرًا بلاغيًا وتداوليًا متقنًا بشكل دقيق ومدكم الأجزاء في ذاته.

وهنا أن البلاغة تتفق مع الاستلزام الخطابي الوضعي، أنهما يستندان ويتكئ كلُّ منهما على المعنى غير المباشر، فالبلاغة وما تتضمنه من أقسام التعريض، والمجاز والكناية تضطلع بمهام التلميح والإيحاء، كذلك التداولية في استلزامها الخطابي الوضعي نجد أنها تعتمد آلية المعنى الذي لا يُقال صراحة، وإنما يُفهم ضمناً من السياق. ومن التطبيقات على ذلك أيضاً قوله:

"إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا اللِّقَاءَ بِكُمْ فِي مُوقِفِ الحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَيَكْفِينَا"

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ٥٤٢٩-٢٠٠٨م، صفحة ٣٠١). نلاحظ أن ابن زيدون قد وظف الاستلزام الخطابي بعدّه أداة بلاغية عليا في إبداء الصورة البلاغية التي تحمل في ظاهرها هو اللقاء في الآخرة، بعد أن شخَّ عليهما ذلك في الدنيا، وجعل الغاية والمعنى الإيحائي، في أن الأمل في اللقيا قد تلاشى بشكل نهائي وهناك من حمل هذا الذنب واستغل تلك الثغرة في الفراق، ووجه نهاية العشق إلى مأساة لا يمكن معها الرجوع، والصيغة هنا أقرب ما تكون إلى التأويل الوجودي والصيغة الدرامية التي تكسوها غيمة من الحزن الأبدي (Metwali, Khalaf, ٢٠٢٣)

وقد جعل ابن زيدون في هذه النصوص من قصيدته إيحاءً؛ لحمل المتلقي مهام الاشارة بالتأويل والتفسير، وفهم المعنى عبر السياق

بصورة غير مباشرة؛ مما يُولد التأثير الخطابي ويجعل من الأدوات البلاغية وسيلة لإيصال تلك المشاعر الجياشة دون ابتذال؛ إذ إن حمل هذه المعاني لا يمكن أن يُدرك عبر المعنى الظاهري فقط، بل لا بد من الغوص في أعماق النصوص لاستخراج لؤلؤها ودرها المكنون. كذلك من التطبيقات على الاستلزام الخطابي الوضعي في النونية قوله:

" مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرَمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمْنَا".

(زيدون، ديوان ابن زيدون، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، صفحة ٣٠٠).
الشاعر في هذا البيت عند القراءة الظاهرية، والمعنى الظاهري نجد أنه يطلب الودَّ من المحبوب، أما العملية الاستلزامية تتجه إلى معنى باطني يستخلص منه إدانة وتجريم مشحونًا بالتقصير صوب الطرف الآخر الذي رسم علامات الإنهاء القطعي في العلاقة، وأكد الشاعر أيضًا على التلويح بفهم فقدان السكون والاستقرار في العلاقة، ونقله هنا لمعاني قد اختزلها في هذا البيت من العتاب، والشكوى والحنين، وفقد الذات قد أضمرت في النص، وأعطته كثيفًا وإيحاءً بما ترسمه البلاغة وغايتها في فاعلية الأثر بصورة دقيقة.

الخاتمة

بعد المضي وإكمال السعي في رحلة البلاغة والتداولية في قصيدة ابن زيدون المليئة باللواعج والأحزان، وما حملته من مضامين كلا الرافدين، توصل البحث إلى جمع من النتائج وهي كالآتي:

▶ إن تمازج البلاغة والتداولية في رافد واحد وارتكازها على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي، بما تُحيط به العبارة البلاغية المعروفة من أن لكلِّ مقام مقال، ولَمَّا كانت من وظائف التداولية مراعاة سياق المقام أو الموقف الخطابي، قد تكفلت بتوظيفهما ابن زيدون في قصيدته (النونية)، ومن بينها الأفعال الكلامية التي استعملها الشاعر في قصيدته ليدل بها على معنى ظاهره اللغوي الشكوى من البعد، واجترار الاشواق، وباطنه موجات من الحزن قد أفصحت عن سبب البعد بالحاسدين تارة، والواشين أخرى؛ إذ أن هذه التداخيات قد اشحذت قريحته الشعرية ليأتي بأروع الصور البلاغية وأكثرها جمالاً.

▶ إشراك المُخَاطَب مع المتكلم (ولادة-الشاعر) في التعبير الخطابي، مع عدم التصريح بالتسمية، وتكليل الأبيات بصيغة المثني، وهذه الإحالة تكون أبلغ وأكثر شمولية من التصريح، وذلك الاستعمال جاء خادماً للقصدية وخالياً من الغموض في نطاق الفعل الكلامي الموجه للمتلقي، ويندرج ذلك في معيارية البلاغة وارتباطها بالمتلقي، بما تحققه من التأثير أو الاقناع، كونها نظاماً من القواعد.

▶ دمج الشاعر الطبيعة وظواهرها الساكنة وألبسها رداء متحركاً، وهو دلالة على قدرة المتكلم في الإحاطة اللغوية ورسم الصورة التي عبرت بأكثر مما يقول، إذ عمد الشاعر إلى إشراك الزمن بالعداء لهما مع البشر، والصيغ التخاطبية التي حملت قوة إنجازية في بناء المعنى الشعري يتلقاها القارئ أو المخاطب بسلاسة تامة.

▶ لَمَّا كانت من أهم وظائف البلاغة واهتماماتها هو مراعاة الحال والمقام سواء أكان ذلك للمتكلم أم كان إلى جانب المتلقي، وجدنا أن اللغة في الجنبه الأخرى عُدت التواصل ركيزة أساسية من



ركائزها، ولا يمكن أن تكتب لها الحياة إلا بالتداول فيما بين البشر. وقد عُدَّت نونية أحمد بن عبد الله بن زيدون من عيون الشعر العربي، بما حملته من شذى غزلي وفقد سياسي، قُوبل ذلك بمضامين بلاغية ومعان دلالية تجاوزت القول الظاهر، وأنتجت خطابًا مفعماً بالمعاني الإيحائية التي استخلصت بالدور التأثيري الممتزج بالمدارك البلاغية التي بُنيت على المعنى الجمالي للخطاب، والتأكيد على دور المتلقي في الاستدال على المعنى الباطني الذي يريد الشاعر إيصاله عبر أبياته الشعرية.

المصادر والمراجع

- ابن زيدون. (٥١٤٢٩-٢٠٠٨م). ديوان ابن زيدون. شرح (د. يوسف فرحات) بيروت - لبنان: دار الكتاب العربي.
- ابن منظور. (د.ت). لسان العرب (الإصدار ج٤). اعتنى بتصحيحه (أمين عبد الوهاب، محمد العبيدي،) بيروت-لبنان: دار احياء التراث.
- أحمد المتوكل. (٢٠١٣). قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (المجلد ط١). المغرب: دار الامان.
- أحمد بن فارس. (١٩٧٩). معجم مقاييس اللغة (الإصدار ج٢) تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: دار الفكر.
- العياشي ادراوي. (٢٠١١). الاستلزام الحواري في التداول اللساني (المجلد ط١). الرباط: منشورات الاختلاف. وينظر. فان دايك. (٢٠٠٠). النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي. (عبد القادر قينيني، المترجمون) المغرب. افريقيا الشرق.
- آن روبول ، جاك موشلار. (٢٠٠٣). التداولية اليوم علم جديد في التواصل (المجلد ط١). (د.محمد الشيباني، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة. وينظر. عبد القادر جليل. (د.ت). البلاغة والأسلوبية (ط١). عمان-الاردن.
- اوستن. (١٩٩٢). نظرية أفعال الكلام العامة (المجلد ط١). (عبد القادر فينيني، المترجمون) المغرب: الدار البيضاء. وينظر. طالب سيد هاشم (د.ت). نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب. مطبوعات جامعة الكويت.
- براون ويول. (١٩٩٧). تحليل الخطاب. (محمد الزليطي و محمد التركي، المترجمون) الرياض: النشر العلمي والمطابع. وينظر. أحمد درويش (١٩٩٨). النص البلاغي في التراث العربي والاوربي. القاهرة- مصر. دار غريب.
- د.أحمد حسن إسماعيل الحسن. (٢٠١١). المنهج التداولي في قراءة النصوص الأدبية شعر إبراهيم طوقان أنموذجا. حولية كلية اللغة العربية بجرجا (٥).

- د.حافظ اسماعيلي علوي. (٢٠١١). التداوليات علم استعمال اللغة. الاردن: عالم الكتب الحديث، وينظر: عبد الملك مرتاض (٢٠٠٥). تداولية اللغة بين الدلالة والسياق. مجلة اللسانيات/مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية. الجزائر. ع5.
- د.محمد عبد السلام حسن الباز. (٢٠١٥). آفاق التداولية في النصوص النثرية. طنطا: دار النابعة.
- د.مسعود صحراوي. (٢٠٠٥). التداولية عند العلماء العرب (المجلد ١). بيروت-لبنان: دار الطليعة. وينظر. نواري سعودي أبو زيد (٢٠٠٩). في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والاجراءات) (١). الجزائر. بيت الحكمة.
- فرانسواز ارمينكو. (د.ت). المقاربة التداولية. (سعيد علوش، المترجمون) المغرب: مركز الانماء القومي.
- Metwali, Khalaf, (2023) "Renewing the advocacy discourse and confronting intellectual deviation is a critical study.", INTERNATIONAL MINNESOTA JOURNAL OF ACADEMIC STUDIES, , (VOL,1),(ISSUE,3), PP:360-301



الجامعة الإسلامية بنيسوتا
Islamic University of Minnesota
المركز الرئيسي IUM